الأنساقُ المضمرةُ في رواية "يسمعون حسيسها" للكاتب أيمن (العتوم)

الدكتور خالد علي

قسم اللغة العربية / الاختصاص: النقد الأدبي الحديث

كلية الآداب – جامعة حمص

ملخص البحث

يسعى هذا البحثُ إلى الكشف عن "الأنساق المضمرة" في رواية "يسمعون حسيسها" للروائي أيمن العتوم، مستخدماً أدوات النقد الثقافي لتجاوز القراءةِ الجماليةِ إلى القراءةِ الثقافيةِ.

يهدفُ البحثُ إلى استنطاق المسكوت عنه في النص، وتحليل أنساق السلطة، والمقاومة، والقداسة، وتبيان كيف مرر النصُ خطاباتهِ العميقةَ تحت غطاء السرد الروائي لتجربة سجن تدمر أسوأ السجون في سوريا.

وتوصل البحث إلى أنَّ الروايةَ ليست مجردَ توثيقٍ للألم، بل هي صراعٌ نسقيٌ بين إرادة السحق وإرادة البقاء.

الكلماتُ المفتاحيةُ: السّرد، النسق، النّقد الثقافي، الهوية، الرواية.

Implicit Patterns in Ayman Otoum's Novel They Hear Its Whisper

(Abstract)

This research aims to uncover the "Hidden Patterns" (Implicit Systems) in Ayman Al-Otoum's novel Yasma'una Hasīsaha using the tools of Cultural Criticism. The study moves beyond aesthetic interpretation to cultural analysis, exploring the "unsaid" within the text. It analyzes patterns of power, resistance, and sanctity, revealing how the narrative conveys deep-seated cultural discourses beneath the surface of the prison literature genre. The research concludes that the novel is a systemic conflict between the forces of oppression and the will to survive.

1- مقدمة:

يُعد أدب السجون امتداداً لتجربةٍ مريرةٍ بدأت ملامحها الأدبيةُ منذ ثمانينيات القرن الماضي، لعل رواية أيمن (العتوم) تمثل ذروة في هذا الجنس الأدبي لقدرتها على شحن اللغة برموزٍ ثقافيةٍ عميقةٍ.

ولعلَّ أدب السجون واحدٌ من أصعب الأجناسِ الأدبيةِ وأكثرها تعقيداً في المدونة السردية العربية المعاصرة، فهو ليس مجردَ توثيقٍ لزمنٍ محبوسٍ أو رصدٍ لجدران صماءَ، بل هو إعادة صياغة العلاقة بين الروح والقيد، وبين الضحية والجلاد.

وفي هذا السياق، تبرز رواية "يسمعون حسيسها" للروائي والشاعر الأردني أيمن (العتوم) بوصفه علامةٍ فارقةٍ، لا لكونها تسرد تجربةً واقعيةً مريرةً في سجن "تدمر" فحسب، بل لقدرتها الفائقة على شحن اللغة السردية بأبعاد رمزية وأنساق ثقافية تتجاوز السطح الحكائي المباشر.

إنَّ القراءة التقليدية لهذا النوع من النصوص غالباً ما تقف عند حدود التعاطف الوجداني أو التحليل الجمالي للغة، إلاَّ أنَّ هذا البحث يتبنى رؤيةً مغايرةً تستند إلى "النقد الثقافي". يسعى البحثُ إلى الحفرِ في "المسكوت عنه" داخل النص، واستنطاق تلك الأنساق المضمرة التي تحرك سلوك الشخصيات وتوجه بوصلة الصراع.

فالرواية تختزن في طياتها صراعاً بين نسق "تأليه السلطة" الذي يمارسه السجان، ونسق "القداسة والمقاومة" الذي يتشبث به السجين، مما يجعل من النص ساحة للاشتباك القيمي والثقافي.

تأتي هذه الدراسة لتعالج إشبوصفها ألية جوهريةً: كيف استطاع أيمن (العتوم) أن يحول "الألم الجسدي" إلى "بنيةٍ معرفيةٍ"؟ وكيف تسللت الأنساقُ التاريخيةُ والدينيةُ إلى لغة السجن لتعيد ترتيب موازين القوى بين القاهر والمقهور؟ إنَّ أهمية هذا البحث تكمن في محاولة تفكيك "آليات القمع" ليس كفعلٍ ماديٍ، بل بوصفها بنية ثقافيةٍ متجذرةٍ، وكيف استطاعت "اللغة الشاعرة" أن تكون درعاً لحماية الهوية الإنسانية من التفتت والعدم.

ومن هنا، سيعملُ البحثُ عبر فصوله ومباحثه على تتبع خيوط هذه الأنساق، مستعيناً بأدوات المنهج الثقافي الذي يرى في الرواية "جملةً ثقافيةً" كبرى، تُضمر من المعاني أكثر مما تظهر، وتؤسس لوعيٍ جديدٍ يرفض الاستلاب ويقدس الحرية.

" **لمّا كانت وظيفة النقد الثقافي نقد الأنساقِ المضمرةِ وكشف عيوب الخطاب بما في ذلك عيوب المؤسسة نفسها، ودورها في تنميط أفعال الاستقبال والتذوق والتأويل، وإخضاع فعل القراءة لشروط المؤسسة وأحكامها، فإنَّ النسق بمفهوم المشروع الثقافي أصبح الشغل الشاغل في بُعده المحوري المركزي** " [1]

2- مشكلة البحث

تُعدُّ صياغة مشكلة البحث الركيزة الأساسية التي ينطلق منها النقد الثقافي، خاصة عند تطبيق مفهوم "الأنساق المضمرة" على نصٍ روائيٍ مشحونٍ سياسياً وإنسانياً مثل رواية "يسمعون حسيسها" لأيمن (العتوم)، و "**النسقُ المضمرُ هو ذلك البعدُ المسكوتُ عنه في النّصّ الثّقافي، والّذي لا يَتجلّى في اللغةِ المباشرةِ، وإنّما في اللاوعي الثّقافي، والّذي يَتطلّبُ قراءةً نَقديّةً خاصّةً لاستكشافِهِ**" [2]

يمكن صياغة مشكلة البحث من خلال التركيز على الفجوة بين النص الظاهر (أدب السجون كشهادة) والنص الخفي (الأيديولوجيا والثقافة المترسبة).

تتجلى مشكلة البحث في محاولة الكشف عن الصراع القائم بين الجماليات الأدبية للرواية وبين الأنساق الثقافية التي تختفي وراء لغتها السردية.

"**إنّ فِعلَ القراءةِ ليسَ مَعزولاً عن الأنساقِ المُضمرةِ، بَل إنّ قِرَاءةَ المتلقّي تَتحدّدُ بِنوعِ الأنساقِ التي تَتَملّكُهُ وتُوجِّهُ استجابتَهُ للنّصِّ**"[3]

فالرواية لا تقدم مجردَ توثيقٍ لتجربة سجن تدمر، بل تمرر منظومةً من القيم، والتحيزات، والأنساق التي قد تتعارض مع المعلن في النص.

ويمكن بلورة المشكلة في الأسئلة المركزية التالية:

* ما الانساق الثقافيةُ (السياسيةُ، الدينيةُ، والاجتماعيةُ) التي "تتخفى" خلف الخطاب الإنساني في الرواية؟

* كيف استطاع النسق الفحولي أو البطولي أن يوجه مسار السرد رغم قسوة التجربة وتهميش "الذات" داخل السجن؟

---

[1] - النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية : عبد الله الغذّامي : 59 - 63 - 74 - 163 ، الناشر المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء/ المملكة المغربية ، ط 2 / 2001

[2] - عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، ص 75

[3] - فنسنت ليتش، النّقد الثّقافي: النظرية الأدبيّة وما بعد البنيويّة، ص 100

* إلى أيَّ مدىً يكرس النص "نسق الضحية" بوصفها اداة لمواجهة "نسق الطغيان"، وهل سقط النص في فخ إعادة إنتاج السلطة التي ينتقدها؟

وفي البحث في أدب السجون قد نسقاً مضمراً يمجّد التضحية المطلقة، وقد يغفل في المقابل جوانب الضعف البشري. المشكلة هنا تكمن في البحث عن كيفية صياغة (العتوم) لوعي القارئ لتقبّل أيديولوجيا معينة تحت غطاء "التعاطف الإنساني".

"**فالنسقُ المضمرُ هو جُزءٌ من الذاكرةِ الثّقافيّةِ للأُمّةِ، وهو يَتغذّى من الأساطيرِ، والملاحمِ، والحكاياتِ الشّعبيّةِ، ويُعيدُ إنتاجَ نفسِهِ في الأشكالِ الأدبيّةِ الحديثةِ**" [4]

إذ تتحرك الرواية في فضاءٍ مغلقٍ، ويمكن إثارة تساؤل: هل تحولت تجربة السجن في الرواية إلى "طقسٍ عباديٍ" يكرس نسق الاستشهاد الصوفي؟ وكيف أثر ذلك في واقعية الأحداث؟

هناك إشبوصفها ألية دائمةٌ في النقد الثقافي وهي: هل نجحت اللغة الشعرية العالية التي يتميز بها أيمن (العتوم) في تمرير "عيوبٍ ثقافيةٍ" أو "أنساقٍ سلطويةٍ" دون أن يشعر القارئ؟

" **ومن هنا يتمثل الأثر الثقافي في ما يسكبه النص في الثقافة مثل " إعادة ترتيب سلم القيم الثقافية والأدبية، أو إعادة ترتيب النصوص الأدبية داخل ثقافةٍ معينةٍ، أو حتى إعادة التأريخ الأدبي لأدب أمةٍ من الأمم**"[5]

" **ومن ثمَّ تباشر الأنساق المضمرة وظيفتها في أبعادها التداولية بحسب قبول المركز / المركزي = المؤسسة / السلطة بأنواعها = نخبها + مبدعها، و الهامش / اللامركزي = المجتمع = الجمهور بأصنافه وطبقاته ورفضهما** "[6]

3- أهمية البحث

* تطبيق منهج النقد الثقافي على نصٍ معاصرٍ ومثيرٍ للجدل.
* كشف الأيديولوجيات المتخفية وراء جماليات اللغة الشاعرية التي يتميز بها (العتوم).
* فهم العلاقة بين "الضحية" و"الجلاد" كأنساقٍ ثقافيةٍ متجذرةٍ في الوعي الجمعي.

4- أهداف البحث:

[4] - محسن جاسم الموسوي، النّقد الثّقافي: من التاريخانيّة إلى ما بعد الاستعمار، ص 115
[5] -سرديات النقد في تحليل الخطاب النقدي المعاصر : حسين خمري :ص 70 ، منشوارت الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2011
[6] -جماليات النقد الثقافي : أحمد جمال المرازيق : ص48 وما بعدها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت / لبنان، ط 1 / 2009

توسيع دائرة النقد الثقافي بضرورة قراءة "أدب السجون العربي" بمنظور النقد الثقافي (وليس فقط الأدبي أو النفسي)، للكشف عن البنى العميقة التي تعيد إنتاج الاستبداد في الوعي الجمعي.
دراسة لغة الجسد في السرد: و الالتفات لـ "سيمياء الجسد" في روايات أيمن (العتوم)، وتتبع كيف يتحول الألم الجسدي إلى "لغة" لها قواعدها وأنساقها.
الاهتمام بالمتلقي والنسق ودراسة مدى تأثير هذه الأنساق المضمرة على القارئ العربي المعاصر، وكيف تساهم هذه الروايات في تشكيل وعيٍ ثقافيٍ جديدٍ يرفض التشييء والإذلال.

5-حدود البحث:

* الحد الموضوعي: الأنساقُ المضمرةُ (سلطويةً، دينيةً، اجتماعيةً).

* الحد الزمني والمكاني: الرواية الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ومدة السجن التي تغطيها (أحداث سجن تدمر).

تتصل هذه الأنساقُ اتصالاً وثيقاً بالممارسات المتجذرة في البنى الواعية واللاواعية لدى الفرد والجماعة على حد سواء؛ إذ تعمل بوصفه اطار تفسيريٍ للوجود الإنساني وتجلياته ضمن السياقات الثقافية والاجتماعية. وفي هذا الضوء، يتجلى النسقُ الثقافيُ داخل الخطاب بوصفها بنية مضمرةٍ تضطلع بدورٍ محوريٍ في تشكيل الهويات، وإعادة ترسيم التخوم الفاصلة بين الأنا والآخر.

و يجدر الذكر بأنَّ "النسق في ضوء انفتاحه على مكون الثقافة- اللغة يؤسس نظاماً من العلاقات المرجعية الخاصة، والاحتمالات الإشارية اللّانهائية" [7]

5- الدراسات السابقة

حظي أدب أيمن (العتوم)، سواء الروائي أم الشعري، باهتمامٍ نقديٍ وأكاديميٍ واسعٍ، وتنوعت الدراسات بين الكتب المنشورة، والرسائل الجامعية، والمقالات المحكمة.
فيما يلي قائمة بأبرز هذه الدراسات مصنفة حسب طبيعتها:

أولاً: الكتب النقدية المتخصصة

توجد مؤلفاتٌ نقديةٌ كاملةٌ تفرغت لتحليل تجربة (العتوم) الإبداعية، ومن أهمها:

* "آليات السرد وتشكيل الخطاب: قراءات في أدب أيمن (العتوم) الروائي" للباحث رائد السراحين: يركز هذا الكتاب على كيفية بناء الرواية لغوياً وسردياً.

[7] -يوسف طليمات، جماليات التحليل الثقافي- الشعر الجاهلي نموذجا، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2004 م، ص 42

* "يعسوب الرواية العربية أيمن (العتوم)" للدكتور الصديق بشير نصر: دراسةٌ شاملةٌ تتناول مكانة الكاتب في المشهد الروائي المعاصر.

* "وهج القناديل: قراءات في أدب الشاعر الروائي أيمن (العتوم)" للصديق بشير نصر: تركز هذه الدراسة على الجانبين الشعري والروائي معاً.

ثانياً: الدراسات الأكاديمية (رسائل الماجستير والدكتوراه)

تعد رواياته مادةً غنيةً لطلاب الدراسات العليا، ومن أبرز العناوين المتداولة في الجامعات العربية:

* عن رواية "يسمعون حسيسها":

* البناء الفني في رواية "يسمعون حسيسها": دراسة في التقنيات الروائية. لردينة محمد مصطفى الغدير في جامعة جرش عام 2021

* التناص القرآني في رواية "يسمعون حسيسها": تبحث في استحضار النص الديني داخل السرد. لديامي نور الدين جامعة محمد البشير الابراهيمي عام 2023

* المأساة ودلالة المكان في رواية "يسمعون حسيسها": دراسة في فضاء سجن تدمر. لحنان زهر و ليلى هماش عام 2020

* دراسة "سرد الذات في روايات أيمن (العتوم): دراسة في ضوء النقد الثقافي" (جامعة ميلة، 2026) للباحثة امنة عنوش عام 2025

ثالثاً: المقالات النقدية والمحاور الموضوعية

هناك دراسات ركزت على "ثيمات" محددة في أدبه، مثل:

* دراسة "الخيال التاريخي عند أيمن (العتوم)": نُشرت في مجلة "المدونة" (2025) وركزت على رواية "طريق جهنم".

* أدب المقاومة: دراسات تناولت ديوان "نبوءات الجائعين" و"طيور القدس".

* سيميائية العنوان: دراسات تبحث في "عبقرية العنوان" عند (العتوم) وكيف يشكل عتبة نصية فارقة.

6- منهج البحث

يعتمدُ البحثُ المنهج الثقافي الذي يُركز على "الجملة الثقافية" بدلاً من "الجملة الأدبية"، وكشف الأنساق المضمرة، تمثلات السلطة، وصورة الضحية مع الاستعانة بآليات التحليل لتفكيك الرموز

والدلالات داخل السجن، وتحليل العناوين، الفضاء المكاني، والرموز الدينية، وأثر الخطاب الديني والسياسي في توجيه القارئ.

وكشف المضمرات النسقيّة، والثقافيّة والأسطورية وغيرها، داخل المنجز السّردي الروائي لأيمن (العتوم).

7- عرض البحث

تمهيد: تأصيل المصطلحات:

يقتضي البحث في فضاء سجن تدمر ودلالاته المأساوية في رواية "يسمعون حسيسها" الوقوف عند مرتكزات نظرية ومصطلحية تشكل حجر الزاوية في مقاربة النص من منظور نقدي ثقافي، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: تأصيل مصطلحات البحث

1. السرد: هو الآلية الفنية التي يتم من خلالها نقل الأحداث وتحويلها من مجرد وقائع خام إلى بناء فني منظّم. وفي أدب السجون، لا يعد السرد ترفاً جمالياً، بل هو أداة لمقاومة النسيان وإعادة تشكيل الوجدان الإنساني في مواجهة القمع.

2. النسق: يمثل البنية التحتية والمضمرة التي تحكم إنتاج الخطاب. والنسق في هذا البحث يتجاوز المعنى اللغوي ليشمل "الأنساق الثقافية" التي يمررها النص حول السلطة، والمكان، والعلاقة بين السجان والمسجون، وهي أنساق غالباً ما تكون مخبوءة تحت سطح اللغة.

3. النقد الثقافي: هو المنهج الذي يسعى إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النصوص الأدبية، منتقلاً من تحليل الجماليات (النقد الأدبي) إلى تحليل الوظائف الثقافية والسياسية والاجتماعية التي يؤديها النص، بوصفه وثيقة تدين أنظمة القمع وتكشف آليات اشتغالها.

4. الهوية: في فضاء السجن، تصبح الهوية هي المستهدف الأول؛ إذ يسعى السجن بممارساته إلى "تشييء" السجين ومحو خصوصيته. وتبرز في الرواية بوصفها محاولة لاستعادة "الذات" المفقودة والتمسك بالانتماء الإنساني والقيمي في مواجهة الاستلاب.

ثانياً: نبذة عن الكاتب أيمن العتوم[8]

[8] -- أيمن (العتوم) مؤلف من الأردن. شاعر وروائي، وهذه الرواية تندرج تحت فئة الرواية العربية.

أيمن العتوم (مواليد 1972) شاعر وروائي أردني، تميز بصوته الأدبي الذي يمزج بين الجزالة اللغوية والعمق الإنساني. حصل على شهادات أكاديمية متنوعة (بكالوريوس هندسة مدنية، وبكالوريوس لغة عربية، وصولاً إلى الدكتوراه في النحو واللغة).

تأثرت تجربته الأدبية بخلفيته الأيديولوجية وتجربته الشخصية مع الاعتقال السياسي، مما جعله أحد أبرز رواد "أدب السجون" الحديث في العالم العربي. تتسم رواياته (مثل: يا صاحبَي السجن، يسمعون حسيسها) بالقدرة العالية على استنطاق الوجع الإنساني، وتوثيق المراحل التاريخية المظلمة بلغة تجمع بين الشاعرية والواقعية الصادمة، وهو ما جعل أعماله تحظى بانتشار واسع وجدل نقدي مستمر.

أديبُ السجون وشاعرُ الحرية، ولد أيمن علي (العتوم) في الأردن بمدينة جرش عام 1972، يتميز بتعدد روافده المعرفية، فهو حاصلٌ على إجازة في الهندسة المدنية، وإجازة في اللغة العربية، ثم أكمل دراساته العليا ليحصل على الدكتوراه في اللغة العربية (نحو وصرف).

هذا المزيج بين "دقة المهندس" و"خيال الشاعر" و"تمكن اللغوي" منح رواياته بنيةً هندسيةً رصينةً، ولغةً فخمةً تمتاز بالجزالة والقدرة على التخييل.

لم يكتب (العتوم) عن السجن من باب الترف الأدبي، بل خاض تجربة الاعتقال السياسي في الأردن في التسعينيات. هذه التجربة هي التي ولدت روايته الشهيرة "يا صاحبَي السجن".

هذه الخبرةُ المباشرةُ جعلته قادراً على وصف "الأنساق المضمرة" داخل السجون بصدقٍ شديدٍ، لأنَّه اختبر "سيمياء الألم" وعاين انكسار النفس البشرية وتحررها خلف القضبان.

(العتوم) في الأصل شاعرٌ (له دواوين مثل: خذني إلى المسجد الأقصى، قلبي عليك حبيبتي). لذا، تأتي رواياته مشحونةً بلغةٍ استعاريةٍ عاليةٍ.

علاقة الكاتب بالعمل: قام أيمن (العتوم) بكتابة هذه الرواية بناءً على معايشات حقيقية ومشاهدات للطبيب "إياد أسعد" خلال مدةسجنه في سجن تدمر.

تاريخ النشر (لهذا العمل): صدرت الطبعة الأولى من رواية "يسمعون حسيسها" في تشرين الأول 2012، وصدرت الطبعة الثالثة التي تنتمي إليها هذه النسخة في أيار 2013.

المصدر: رواية "يسمعون حسيسها"، أيمن (العتوم)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، 2013.

يبرز في عناوين رواياته (يا صاحبَي السجن، يسمعون حسيسها، ذائقة الموت، نفر من الجن). هذا التوظيف ليس شكلياً، بل هو استدعاء لـ "نسق القداسة" ليمنح التجربة الإنسانية أبعاداً كونيةً وأسطوريةً.

تخصص (العتوم) في نقل تجارب الآخرين وتحويلها إلى رواياتٍ (مثل تجربة الطبيب إياد أسعد في "يسمعون حسيسها"). هو لا يكتفي بالسرد، بل "يؤرشف" القمعَ ويحوله إلى "معرفة".

أبرز أعماله الروائية

* يسمعون حسيسها (2012): وهي موضوع بحثنا، وتتناول تجربة سجن تدمر في سوريا.
* يا صاحبَي السجن: تتناول تجربته الشخصية في السجون الأردنية.
* كلمة الله: تتناول الصراع الديني والفكري.
* خاوية: تتناول قضية التوحد واللجوء السوري ببعد إنساني عميق.

يستمدُ أيمن (العتوم) مشروعه الروائي من مرجعيةٍ لغويةٍ ودينيةٍ صلبةٍ، كونه أكاديمياً متخصصاً في اللغة العربية وشاعراً متمكناً. وإنَّ اختيار (العتوم) لعناوينَ مستمدة من النص القرآني لرواياته (مثل يسمعون حسيسها) يضمرُ رغبةً في ربط الراهن السجونِي بالمتعالي المقدس، مما يخلق نسقاً من المقاومة الروحية يتجاوز انكسار الجسد، وهذا ما يجعله من أبرز رواد أدب السجون المعاصر الذين استطاعوا تحويل المأساة إلى وعيٍ ثقافيٍ.

تعريفٌ بالرواية: [9]

تُقدّم رواية "يسمعون حسيسها" للكاتب الأردني أيمن العتوم (2012) توثيقاً أدبياً صارخاً يستند إلى تجربة الطبيب السوري (إياد أسعد)، الذي واجه غياهب المعتقلات لسبعة عشر عاماً، مقيماً في رعب سجن "تدمر" العسكري بين عامي 1980 و1997، وتحديداً في المهجعين (27) و(34).

الحدث الرئيس: صراع البقاء ومحاربة الاستلاب

يتمثل الحدث المحوري في رحلة الطبيب الشاب من عالم الإنسانية والطب إلى دهاليز العدم؛ إذ يُعتقل في مطلع الثمانينيات دون ذنب، ليُنتزع من حياته ويُقذف في بيئة صُممت هندسياً لمحو

[9] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ، ط3، 2013، توزيع دار الفارس عمان

كيانه. يتجلى هذا الحدث في صمود الذات أمام "هندسة القمع" داخل زنازين تدمر وساحاته التي شهدت إعدامات جماعية، إذ يواجه السجين "حفلات الاستقبال" والتعذيب الممنهج عبر "الكيبلات" و"الدولاب"، محاطاً بسجانين يمارسون سلطة مطلقة تهدف لتحويل الإنسان إلى مجرد رقم مهان.
تفاصيل الفضاء السجني وأنساقه

* جحيم أرضي: يُصوّر السجن كدركات يعيش فيها المعتقل بين مخلوقات فاقدة للبشرية، إذ السياط تترك أثراً لا يمحى في الذاكرة، و"الطمّاشة" تغيب الوعي عن الواقع المرير.

* شهادة منقوصة من هول الفظاعة: يؤكد صاحب الحكاية أن ما نُقل لا يتجاوز "عُشر الحقيقة"، مما يجعل العمل دعوة لتوثيق تاريخ "المقابر" وفاءً لمن قضوا هناك.

* يوميات المعاناة: يتحول البقاء إلى معركة يومية تتجلى في تفاصيل الطعام والشراب، وفي دور البطل كطبيب يحاول مداواة زملائه بالملح والصبر، مفعلاً "نسق التكافل" ضد "الموت المجاني" الذي يترصد الجميع لأبسط الأسباب.

* الملاذ الروحي: وسط هذا الاستلاب، تبرز مناجاة السجين لخالقه بوصفها قوة لقتل الخوف، ويتحول حفظ القرآن والصلاة إيماءً إلى وسيلة لمقاومة الانهيار النفسي واستحضار الصبر.

تُختتم هذه السيرة بكونها "صفحة من كتاب التاريخ" المنسي، مهداة إلى الذين جعلوا من أجسادهم جسراً للحرية، ومسلطة الضوء على عقود من الظلام والممارسات التي سعت لانتزاع إنسانية السجين وكينونته.

هذا الجانب هو ما يبرر العنوان المستوحى من الآية القرآنية: **{لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ}**[10]، في إشارةٍ إلى النسق الروحاني (الحسيس) أي أنَّ أرواحهم تعيش في جنة الرضا واليقين رغم أنَّ أجسادهم في نار السجن.

تنتهي الرواية بخروج البطل من السجن بعد قرابة عقدين من الزمن، ليدخل في صدمة مواجهة العالم الخارجي الذي تغير تماماً. لكنَّ النهاية الحقيقية ليست في الخروج الجسدي، بل في "فعل الكتابة"، إذ قرر الطبيب أن يبوح بوجعه لأيمن (العتوم)، ليتحول الألم الشخصي إلى ذاكرةٍ جماعيةٍ.

متن البحث:

[10] - القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 102

يُعد الانتقال من التنظير العام للنقد الثقافي إلى التطبيق الإجرائي على رواية "يسمعون حسيسها" لأيمن (العتوم) خطوةً جوهريةً، لأنَّها تنقلنا من فضاء "كيف نقرأ؟" إلى فضاء "ماذا نكتشف خلف السطور؟".

"إنّ هَيمنةَ الأنساقِ المُضمرةِ تَعتمِدُ على قُدرتِها على التّخفّي والانسرابِ في الخطاباتِ اليوميّةِ والأدبيّةِ، وتَحويلِ ما هوَ نَسقيٌّ ومُكتسَبٌ إلى ما هوَ طَبيعيٌّ وبَديهيٌّ" [11]

لم يعد النص الأدبي في منظور النقد المعاصر مجرد بنيةٍ جماليةٍ منغلقةٍ على ذاتها، بل استحال ساحةً للصراع وصورةً عاكسة للأنظمة الفكرية والاجتماعية التي أنتجته. ومن هنا، يبرز النقد الثقافي بوصفه مشروعاً يسعى لتجاوز "جماليات النص" إلى "أنساق المضمر"، باحثاً عما يتخفى خلف البلاغة من أيديولوجيات وسلطاتٍ وقيمٍ مرسخةٍ.

فإذا كان النقد الأدبي التقليدي ينشغل بجماليات اللغة، فإنَّ النقد الثقافي يغوص في "قاع النص" ليستخرج الأنساق المضمرة، تلك الأنساق التي تتسلل عبر اللغة لتمارس هيمنتها على وعي المتلقي دون تصريحٍ مباشرٍ.

"إنّ النّقد الثّقافي لا يُعنَى بالنّصوص الجميلة بل بالقبيحة، لأنّه يَرَى فيها أنساقاً مُضمرةً لا يُرى إلاّ القليلُ منها، وأكثَرُها يَختبِئ تحتَ أستارٍ سَميكةٍ مِن الجَمال الّذي يُغطّي عَلَيهَا، ويَحولُ دونَ رُؤيَتِها، ومَهمّة النّاقد الثّقافي كَشفُ هَذهِ الأنساق، وتَبيان فَضيحَتِها"[12]

رواية "يسمعون حسيسها": مختبر للأنساق وعندما نقارب رواية "يسمعون حسيسها" للكاتب أيمن (العتوم)، نجد أنَّنا أمام نصٍ لا يكتفي بنقل تجربة "أدب السجون" المريرة، بل هو نصٌ محمّلٌ بشحناتٍ ثقافيةٍ عميقةٍ وتراوتٍ معرفيةٍ تجعل منه بيئةً خصبةً للاشتغال النقدي الثقافي. فخلف السردية المؤلمة لمعاناة السجين "الطبيب إياد أسعد"، ثمة أنساقٌ تتشابك لتشكل بنية الرواية الكلية، منها:

* نسق السلطة والقمع: وكيفية تجليه في اللغة والتعامل اليومي داخل الزنزانة.
* نسق الصمود الديني/المقدس: الذي يظهر كمصدّ ثقافي في مواجهة الانهيار.
* نسق "الآخر": وكيف يتم تمثيله ثقافياً بين السجان والمسجون.

[11] - حفناوي بعلي، مدخل إلى النّقد الثّقافي وقضاياه، ص 91
[12] - عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، ص 73

إنَّ الانتقال من كليات النقد الثقافي إلى جزئيات رواية "يسمعون حسيسها" يفرض علينا تساؤلاً جوهرياً: كيف استطاع (العتوم) تمرير خطاباته الثقافية عبر "النسق المضمر"؟ وهل نجح النص في كشف زيف النسق السلطوي أم سقط في فخ إعادة إنتاجه بوعي أو من دون وعي؟ "**إنّ هَذهِ الأنساق المُضمرة لا تتشكّلُ عَبَثاً، وإنّما هِي نِتاجُ صِراعاتٍ طَويلةٍ بينَ قِوى اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ مُختلِفةٍ، تَنتهي بِتغليبِ نَسَقٍ مُعيّنٍ وفَرْضِهِ كَنَسَقٍ مُهيمِنٍ، وإقصاءِ الأنساقِ الأخرى وتَهمِيشِها**"[13]

نسق السلطة والجلاد (تأليه القوة)

أولاً: مفهوم السلطة وآليات الهيمنة

تُطرح السلطة في روايات (العتوم) ليس فقط بوصفها قوة ماديةٍ، بل بوصفه جهازاً "أيديولوجيٍ" يسعى لإنتاج وعيٍ جديدٍ للذات من خلال طقوس الاستسلام فتبدو السلطة بوصفها منظومة ثقافيةٍ وقمعيةٍ.

فتعمل هذه السلطة (سواء كانت سياسيةً، دينيةً، أم اجتماعيةً) بوصفها ألية لتطويع الأفراد وإعادة تشكيل وعيهم وفق منظومة السيطرة، إذ يتجسد السجان أو رجل الدين بوصفها رموز للضبط الاجتماعي.

تُطرح السلطة ليس كفعلٍ عابرٍ، بل بوصفها رموز للضبط الاجتماعي (السجان، رجل الدين، السلطة السياسية) التي تهدف لإعادة تشكيل الوعي وفق منظومة السيطرة.

وتمارس السلطة رقابةً كاملةً على الجسد وتحاول تحطيم الرموز التي تمنح الإنسان شعوره بذاته، مثل محاولة كسر "جدار الحياء" للسيطرة الكلية.

[13] - محسن جاسم الموسوي، النّقد الثّقافي: من التاريخانيّة إلى ما بعد الاستعمار، ص 112

يقول الكاتب "**لا أدري كم مضى من الأيام وأنا غائبٌ عن الوعي، صحوتُ في غرفةٍ معتمةٍ إلاَّ من لمبةٍ ترتعش بتكاسلٍ على مكتب المحقق، كنتُ عارياً إلاَّ من (السليب) و(الشورت)، من خلفي عسكريان، ومن خلف المحقق مثليهما**" [14]

"**يا إله السماء: كم ناديتك لكي لا تتركني مع الوحوش الوالغة في دمي!! يا إله السماء السابعة: كم ناجيتك لكي تبقي على ما تبقى من كينونتي التي انتزعوها من تحت جلدي ثم تركتهم يستمرون في انتزاعي منّي حتى لم أعد أنا... أنا!!!**" [15]

ينظر إلى النصين السابقين بوصفهما تمثيلاً لنظام "النسق المضمر" الذي يتجاوز البنية السطحية للاعتقال ليُكشف عن آليات تتحول فيها السلطة من ضبط السلوك إلى استباحة الجسد وتجريده من سياقاه الثقافي والقيمي.

يبرز النسق هنا من خلال استراتيجية "التدنيس العمدي"، فمحاولة كسر "جدار الحياء" عبر التعرية ليست فعلاً عشوائياً، بل هي تقنيةٌ نسقيةٌ تهدف إلى برمجة الفرد و إعادة صياغته ككائنٍ بيولوجيٍ مستباحٍ، فاقد لرمزيته الإنسانية أمام هيمنة المؤسسة (المحقق/ العساكر).

هذه العملية التي تقوم من خلالها "السلطة" بتحويل الكائن البشري إلى "ذاتٍ" خاضعةٍ ومنصاعةٍ.

فالسلطة لا تكتفي بفرض عقوباتٍ خارجيةٍ، بل تعمل على غرس قيمها وقوانينها داخل وعي الفرد، بإذ يصبح هو "المراقب" على نفسه، ويتبنى رؤية السلطة كأنَّها جزء من هويته الشخصية، ضمن نسق صناعة الامتثال.

ففي مشهد الاستجواب، يُراد بالفرد أن يفقد استقلاليته ويتحول إلى "موضوع" للدراسة أو القمع؛ فتعريته ووضعه تحت الضوء المرتعش هي محاولة لجعله يرى نفسه من خلال عين المحقق فقط، أي تجريده من "ذاته" القديمة لتركيب "ذات" جديدة محطمة ومنكسرة، لتجريد الخصوصية.

[14] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص ١٧
[15] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص ١٠

الغاية النهائية هي أن يصل الإنسان لمرحلة يمارس فيها الضبط الاجتماعي على نفسه دون الحاجة لوجودٍ عسكريٍ خلفه، لأنَّه استبطن أدوات القمع وأصبحت جزءاً من تكوينه النفسي، فأصبح ضمن نسق الخضوع الطوعي.

باختصار، هي عملية "إعادة هندسة الوعي" ليكون الفرد متوافقاً تماماً مع النسق السلطوي السائد، سواء كان ذلك عبر العنف المادي (السجن) أم العنف الرمزي (تحطيم الثوابت والقيم الشخصية).

إنَّ العتمة واللمبة المرتعشة ليست ديكوراً، بل هي أنساقٌ بصريةٌ تكرس شعور الضحية بالضياع الزماني والمكاني، مما يسهل عملية "إعادة تشكيل الوعي" القسري ودمجه ضمن منظومة السيطرة الكلية التي تلغي "الذات" لصالح "المجموع" الخاضع.

ثانياً: الجلاد وصورة السجان

يظهر السجان في السرد بوصفها واجهة للمؤسسات (الدولة، الطب، القانون) التي تمارس العنف لتهميش وعي الذات المقاومة فيغدو السجان بوصفها اداة للمؤسسة.

ويبرز دور الجلاد من خلال "الاستجواب" الذي يتجاوز القمع المادي لإنتاج "وعيٍ آخر للذات"، ليكوِّنَ طقساً رمزياً يتجلى فيه الخضوع كشرطٍ للبقاء وهنا تظهر طقوس سحب الاعتراف.

إنَّ هدف الجلاد ليس المعلومات فقط، بل تحطيم كبرياء الذات: "**وضع أحدهم الطمّاشة على عينيّ، أحسستُ بخشونتها، شدّها من الخلف فضغطت على عينيّ بقوة، كدتُ أتأوّه، فتذكرتُ اللطمة قبل قليل، بلعتها... قدّموني مترين من مكتب المحقق، وبقيت جاثياً على الأرض، قال المحقق: – اسمك يا كلب...**" "[16]

[16] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص ١٨

يتجلى النسق المضمر في هذا المشهد بوصفه آلية لإنتاج "الهوية المسحوقة"، إذ يتحول الاستجواب من وسيلةٍ لجمع المعلومات إلى "طقس عبورٍ" عكسيٍ، يهدف إلى نقل الضحية من حالة "الإنسان ذي السيادة" إلى حالة "الشيء" أو "الحيوان".

ويمكن رصد الأنساق الثاوية في النص عبر النقاط التالية:

* نسق "الحجب والتعمية": تمثل "الطمّاشة" أداةً نسقيةً لعزل الذات عن عالمها البصري، مما يؤدي إلى "انوش الوعي" وتركيزه فقط على الألم والترقب. هذا الحجب ليس مادياً فحسب، بل هو رمزٌ لتعطيل إدراك الضحية للواقع وإجباره على التمركز حول سلطة الجلاد بوصفها مرجعاً وحيداً للحقيقة.

* اللغة بوصفها أداة تدجين: إنَّ نداء المحقق ("يا كلب") يمثل نسقاً لغوياً إقصائياً يهدف إلى "الحط من الكينونة". هنا تلتقي اللغة مع الفعل القمعي لتحطيم "كبرياء الذات"، إذ يُستبدل بالاسم (الرمز الهوياتي) لفظاً حيوانياً لشرعنة الاستباحة المادية والنفسية لاحقاً.

* سيميولوجيا الجسد (الجوث): وضعية "الجوث على الأرض" هي تجسيد فيزيائي للنسق السلطوي الذي يفرض "الدونية المكانيّة". فالجلاد هنا لا يسعى لاعتراف قانوني بقدر ما يسعى لانتزاع اعتراف وجودي بالهزيمة، إذ يصبح الألم (ابتلاع الآهة) هو اللغة الوحيدة المتاحة للضحية للتواصل مع ذاتها المحاصرة.

يتحول الجلاد في هذا النسق من محققٍ إلى "مهندسٍ للخراب الداخلي"، يعيد صياغة وعي الضحية ليكون "الخضوع" هو الغريزة الوحيدة المتبقية لضمان البقاء البيولوجي.

يوضح هذا أنَّ الجلاد يمثل "الجهاز الأيديولوجي القمعي"، يتحول الاستجواب إلى "طقس عبور" من الحرية إلى العبودية، والهدف هو لإنتاج وعيٍ مهزومٍ يعترف بسيادة السلطة المطلقة، إذ يسعى السجان لتحويل الزنزانة إلى موقع لعقاب الذات ونفيها، مستخدماً العزل والألم بوصفها ادوات أساسية فيعمد الى تغييب الآخر.

يمارس السجان سلطته عبر لغةٍ تعتمد على "التشييء" (تحويل الإنسان إلى شيء): في السجن، أنت لست اسماً، أنت رقم و السجان لا يناديك ليعرف من أنت، بل ليذكرك بأنك ملكٌ له، وأنَّ جدران الزنزانة هي حدود كونك الوحيدة.

"**الأنساق المضمرة هي تلك الأنظمة المعرفيّة والجماليّة والقيميّة التي تَختبِئ خَلفَ الخطابِ وتَتحكّمُ فِيهِ، وتَوجِّهُهُ لخدمةِ مَصالحِ فِئاتٍ مُعيّنةٍ، وتَرسخُ في ذِهنِ المتلقّي دُونَ أنْ يَشعرَ بِها**" [17]

يقول أيمن (العتوم) على لسان السجين "**شحطوني إلى الزنزانة التي تحمل الرقم (١١)، تفاءلتُ بالرقم، ودخلتُ كتلةً من الجراح، وكيسًا من الأوجاع التي لم أجرّبها في حياتي سابقًا**". [18]

"**الزنزانة رقم (١١) في الدور الرابع للمستشفى الذي صرتُ أعمل فيه، كنتُ أفحص بين يدي طفلاً انتفخ بطنه لطول ما أصابه من إمساك، اتصل بي المدير، وسألني بصوت مرتبك فيما إذا كان ممكناً أن أوافيه إلى مكتبه**".[19]

تحليل النسق المضمر في هذين الاقتباسين يكشف عن صراع عميق بين "السلطة" و"الفرد"، وبين "الألم" و"الأمل". النسق المضمر هو المعنى الثقافي أو النفسي المتواري خلف الكلمات الظاهرة، ويمكن تفكيكه في النصين و يلي:

١. نسق "أنسنة القبح" (التفاؤل في قلب القهر) في الاقتباس الأول للعتوم، يظهر نسق مضمر يتمثل في محاولة الذات التكيف مع العدم.

* الظاهر: سجين يُجر إلى زنزانة وهو مثخن بالجراح.

17 - حفناوي بعلي، مدخل إلى النّقد الثّقافي وقضاياه، ص 89
18 - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص ٢١
19 - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص 16

* المضمر: السجين يمارس نوعاً من "المقاومة النفسية" من خلال تفاؤله برقم الزنزانة (١١). هذا النسق يشير إلى أن الإنسان حين يفقد حريته وجسده (كتلة من الجراح)، يتشبث بـ "الميتافيزيقا" أو الرموز (الأرقام) ليخلق معنى لوجوده داخل مكان صُمم أصلاً لسحق المعنى.

٢. نسق "الرقم" كقاسم مشترك بين السجن والمؤسسة هناك مفارقة مضمرة في تكرار الرقم (١١) بين الزنزانة وغرفة المستشفى:

* في السجن: الرقم (١١) يمثل ضيق الحيز ومكان التعذيب.

* في العمل/المستشفى: الرقم (١١) يمثل مكان الوظيفة والروتين.

* النسق المضمر: يوحي النص بأن "الرقم" هو أداة لتعليب الإنسان، سواء كان سجيناً أم موظفاً. هناك تشابه نسقي بين انضباط السجن وانضباط العمل؛ فكلاهما يحوّل الإنسان إلى "رقم" داخل منظومة كبرى (المعتقل أو البيروقراطية الإدارية).

٣. نسق "ارتباك السلطة" مقابل "وجع الرعية" يظهر هذا بوضوح في الاقتباس الثاني:

* المفارقة: الطبيب منشغل بوجع "طفل" (براءة وألم مادي محسوس)، بينما المدير يتصل بصوت "مرتبك".

* النسق المضمر: السلطة (المدير) دائماً ما تكون مرتبكة أو تحمل نبرة توجس حتى في سياق العمل الطبي، مما يوحي بأن الرقابة هي النسق المهيمن. وجع الطفل (الإمساك والانتفاخ) قد يرمز مضمراً إلى حالة "الاحتقان" أو "الانغلاق" التي يعيشها المجتمع، والتي لا يملك الطبيب أمامها سوى الفحص، بينما تتدخل السلطة لقطع هذا التواصل الإنساني.

النسق المضمر هنا هو "سلطة الرقم والمكان"؛ فالحياة في كلا النصين محكومة بـ "الرقم ١١" و"المدير" و"السجان". إنها محاولة لتصوير الإنسان ككائن محاصر، يبحث عن بصيص تفاؤل في زنزانة، أو يحاول مداواة جراح الآخرين قبل أن تستدعيه السلطة المرتبكة لتدخله في دوامة مجهولة.

يبرز اقتباسٌ قويٌ يصف لحظة تجريد السجين من هويته الإنسانية (اسمه) وتحويله إلى مجرد رقمٍ، وذلك عند دخوله الزنزانة لأول مرةٍ بعد جولة تعذيب: يعكس هذا الاقتباس كيف يتم اختزال وجود السجين الكامل في رقم الزنزانة التي يُرمى فيها، إذ تصبح علاقته بالعالم الخارجي وبنفسه محصورةً في هذا الرقم.

تعكس لغة السجان هنا "الهيمنة الرمزية"، إذ يتم محو هوية الفرد وإحلال هوية "السجين الرقمي" محله، مما يسهل عملية السيطرة عليه وتجريده من إنسانيته.

يُنظَرُ إلى النص السابق بوصفه اشتغالاً سردياً على "المفارقة النسقية" التي تدمج بين الذاكرة القمعية والواقع المهني، إذ يتم استدعاء الرقم (11) كمركز ثقلٍ درامي يربط بين فضاءين متناقضين (الزنزانة/ المستشفى).

ويمكن رصد الأنساق المضمرة في هذا التحول عبر الآتي:

* تراسل الأنساق المكانية: ثمَّة نسقٌ مضمرٌ يوحد بين "الزنزانة" و"المستشفى" من خلال الرقم (11)، فالمكان الأول شهد "تحطيم الجسد" (كتلة جراح)، والمكان الثاني يشهد "ترميم الجسد" (فحص الطفل). هذا التوازي يوحي بأنَّ ذاكرة القمع لا تنمحي، بل تصبح مرجعيةً يقرأ من خلالها المثقف/ الطبيب واقعه الجديد، وكأنَّ "الرقم" هو القيد الذي يربط الماضي بالحاضر.

* نسق "الجسد المستباح" و"الجسد المُعالج": يبرز النسق في المقابلة بين جسد السجين الذي تحول إلى "كيس أوجاع" (مفعول به لسلطة الجلاد)، وبين جسد الطفل المريض (موضوع لفعل الطبيب). هنا يضمر النص صراعاً وجودياً؛ فالطبيب الذي كان يوماً ضحيةً للقمع الفيزيائي، يمارس الآن سلطة المعرفة والطب، لكن استدعاء المدير له "بصوتٍ مرتبكٍ" يعيد إحياء نسق "الترقب والقلق"، مما يوحي بأنَّ سلطة "المكتب" والمدير تظلُّ في الوعي الباطن امتداداً لسلطة "المحقق".

* أنسجة التفاؤل والتشاؤم: يُعد تفاؤل البطل بالرقم (11) داخل السجن نسقاً دفاعياً (مراوغة نفسية للتعايش مع الألم)، لكن تكرار الرقم في المستشفى يكسر هذا التفاؤل ليحوله إلى نذير شؤم أو لحظة مكاشفة، مما يكشف عن نسقٍ مضمرٍ يرى أنَّ الأرقام والرموز في المجتمعات الشمولية تظلُّ محملةً بحمولاتٍ أيديولوجيةٍ وقمعيةٍ يصعب الفكاك منها حتى في سياق "العمل الإنساني".

إنَّ النص هنا يمرر نسقاً مفاده أنَّ "السلطة" ليست مجرد جدران زنزانة، بل هي حالةٌ شعوريةٌ تلاحق الفرد وتجعل من "الارتباك" في صوت المدير صدى لخشونة السجان القديم.

ثالثاً: لغة السجان وخطاب المواجهة

يواجه السجين لغة السجان التي تفرض الصمت كشرطٍ للإفلات من العقوبة، بلغةٍ مقاومةٍ تجعل من إنتاج الكلمة أو الشعر فعلاً سياسياً خطيراً فتبدو لغة القمع مقابل لغة المقاومة.

تظهر المواجهة اللغوية بوصفها اداة لمقاومة السلطة التي تحاول فرض الصمت في رمزيةٍ مباشرةٍ عن حتمية الكلمة مقابل العقاب: في استجواب يعكس محاولة السجان السيطرة على الفكر في محاولات السجان والجلاد لكسر كبرياء السجين وتحطيمه معنوياً ونزع إنسانيته:

"يا إله السماء السابعة: كم ناجيتك لكي تبقي على ما تبقى من كينونتي التي انتزعوها من تحت جلدي ثم تركتهم يستمرون في انتزاعي منّي حتى لم أعد أنا... أنا!!! أي حكمة تتجلى لي لكي أعيها عنك يا رب، والسباع تغل في دمي ولا تكف عن شربي حتى آخر قطرة من روحي!!"[20]

[20] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص10

يتحلل هذا النص بوصفه صراعاً بين "نسق الصمت الإجباري" الذي تفرضه السلطة، وبين "نسق الاستغاثة الوجودية" بوصفها اداة للمقاومة الرمزية. يبرز هنا نقد الذات والبحث عن "الكينونة" في مواجهة آليات "التذويت"[21] القسري التي تمارسها السلطة.

ويمكن تفكيك الأنساق المضمرة للنص وفق الآتي:

* نسق "الاغتراب عن الذات": يكشف النص عن نجاح السلطة (مؤقتاً) في ممارسة "العنف الهوياتي"، فعبارة "انتزاعي مني حتى لم أعد أنا" تُضمر نسقاً يشير إلى أنَّ الهدف الأسمى للجلاد ليس الألم الفيزيائي، بل الوصول بالضحية إلى مرحلة "الخواء الكينوني". السلطة هنا تعمل كخالقٍ مشوه يعيد صياغة تعريف "الأنا" عبر التجزئة والانتزاع.

* نسق "المناجاة كفعلٍ مقاومٍ": في ظلِّ لغة السجان التي تفرض الصمت، يبرز "الخطاب الغيبي" (المناجاة) كنسقٍ مضمرٍ للالتفاف على الرقابة. فاللجوء إلى "إله السماء السابعة" ليس مجرد فعلٍ إيمانيٍ، بل هو "نسقٌ لغويٌ بديل" يكسر أحادية الصوت داخل الزنزانة، ويستحضر قوةً عليا لإبطال شرعية "السلطة الأرضية" التي تمثلها "السباع".

* سيميولوجيا "الارتواء والدماء": يمرر النص نسقاً مضمراً يقلب الأدوار الحيوية، فالسلطة التي يُفترض بها تنظيم الحياة تتحول إلى "سباع" تمارس "الاستهلاك البيولوجي" (شرب الروح/ الغل في الدم). هذا النسق يضمر رؤيةً نقديةً ترى في السلطة الشمولية كائناً طفيلياً لا يعيش إلاَّ عبر امتصاص "الذوات" وتحويلها إلى مجرد مادةٍ خامٍ للبقاء.

* نسق "تساؤل الحكمة": إنَّ البحث عن "الحكمة" وسط العذاب يضمر صراعاً بين النسق الثقافي التقليدي (الذي يربط الألم بالابتلاء/ التطهير) وبين الواقع العبثي للزنزانة. هذا التساؤل هو "تمرد مضمر" يعيد النظر في جدوى المعنى حينما تُنتهك الروح "حتى آخر قطرة".

[21] -التذويت هو عملية تحويل العالم الخارجي أو التجربة المادية إلى وعي داخلي وشعور شخصي، حيث يستعيد الفرد كيانه المستقل أمام ضغوط الواقع، محولاً الأشياء والوقائع من حالات **"موضوعية"** جامدة إلى رؤى **"ذاتية"** مفعمة بالمعنى.

إنَّ النص هنا لا يصور سجناً مادياً فحسب، بل يصور "مذبحةً للرموز"، إذ تصبح الكلمة هي الخندق الأخير لحماية ما تبقى من إنسانية الفرد قبل الذوبان الكامل في منظومة القمع.

و يظهر هذا الأسلوب في الحوارات في أثناء التحقيق التي تهدف إلى الإذلال النفسي:

"**قال المحقق: – اسمك يا كلب...**

(تباطأتُ قليلاً في الإجابة، منّيتُ نفسي بأنّ السؤال لا يقصدني... هوت لطمةٌ أقسى من سابقتها على رأسي من الخلف، صاح بي الذي لطمني):

– اسمك يا شر..."..[22]

يضمر السّؤال اتهاماً ضمنياً، يتحوّل فيه الادب من قيمة فنّيّة جماليّة إلى قيمة سياسيّة خطيرة. فإنَّ التعليق النقدي يتجاوز المعنى الحرفي إلى أنَّ الادب هنا لا يُقرأ بوصفه فناً جمالياً فقط، بل بوصفها قيمة سياسيةٍ "خطيرةٍ" تزعزع استقرار النسق السلطوي فتبرز فكرة تحول الوظيفة الجمالية.

ومن هنا تعتمد الذات المقاومة ويعكس هذا الحوار مفهوم شجاعة ومبدأ "قول كل شيء وقول الحق" في مواجهة السلطة، وهو ما باعتباره شجاعةً لغويةً تقابل لغة الترهيب التي يستخدمها السجان، مما يحول الكلمة إلى أداةٍ لاستعادة الحرية المسلوبة.

هذا النص نموذجٌ صارخٌ لتجلي "النسق المضمر" الذي تتجاوز فيه اللغة وظيفتها التواصلية المباشرة لتصبح أداةً قمعيةً ومنصةً للصراع الوجودي بين السلطة والفرد.

تتجلى في هذا الحوار استراتيجية "الترميز النسقي"، إذ يتحول الأدب من فضاء جمالي محضٍ إلى أداةٍ لتعرية الأنساق الثقافية والسياسية التي تشرعن العنف.

[22] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص18

يستخدم المحقق عبارات مثل "يا كلب" و"يا شر..." لا بوصفها مجرد شتائم عابرة، بل بوصفها نسقاً إقصائياً يهدف إلى نزع الصفة الإنسانية عن "الآخر". هنا، يتحول السؤال من طلب للمعلومة (الاسم) إلى أداة لترسيخ "الدونية".

الناقد المتمكن يدرك أنَّ الصمت أو "التباطؤ" في الإجابة ليس مجرد خوفٍ، بل هو محاولةٌ بائسةٌ للمقاومة ضد هذا النسق الذي يحاول صهر هوية الفرد داخل مسمى حيواني أو أخلاقي ذميم.

تكمن عبقرية النص في تحويل "الأدب" من مجرد صياغةٍ فنيةٍ إلى قيمةٍ سياسيةٍ مزعزعةٍ. عندما يتم استنطاق النص نقدياً، يظهر أنَّ الجمالية هنا لا تكمن في بلاغة التعبير، بل في "بلاغة التعرية". إنَّها قيمةٌ خطيرةٌ لأنَّها:

تفكك "قدسية" النسق السلطوي وتظهره في صورته البدائية (اللطم، الصياح).

تُحول القارئ من متلقٍ سلبيٍ للجمال إلى شريكٍ في إدراك قبح الأنساق المضمرة التي تدير الواقع.

إنَّ النص "يزعزع استقرار النسق السلطوي". هذا الاستقرار يعتمد تاريخياً إبقاء العنف "مضمراً" أو مغلفاً بمسوغات قانونية. لكن حين ينقله الأدب إلى العلن بهذا الوضوح، فإنَّه يكسر "الهيبة النسقية". الفعل الدرامي (اللطمة، الصياح) هو محاولة من السلطة لإعادة السيطرة على "المعنى"، لكن النص الأدبي ينجح في جعل هذا العنف دليلاً على ضعف النسق لا قوته، لأنَّه اضطر لاستخدام القوة البدنية حين عجز عن استخدام الحجة أو الاستيعاب.

إنَّ الانتقال من "الجمال الفني" إلى "الخطر السياسي" في هذا السياق هو انتقال من "وصف العالم" إلى "تفكيك آليات السيطرة فيه". الناقد المتمكن من أدواته لا يقف عند حدود اللغة، بل ينفذ إلى ما وراءها، ليكشف كيف يتحول "السؤال" في غرف التحقيق إلى "نسقٍ اتهاميٍ" مسبقٍ، وكيف يصبح "الاسم" ساحة حربٍ لاستعادة الكرامة المسلوبة.

إنَّ خطورة هذا الأدب تكمن في كونه "فضحاً للنسق"؛ فالسلطة تخشى الكلمة ليس لأنها كذب، بل لأنها "حقيقة جمالية" تُعرّي "الزيف النسقي" الذي تقتات عليه الأنظمة الشمولية.

و "**الأنساقُ المضمرةُ في الخطابِ السّياسي تَعمَلُ عَلى ترسيخِ مفاهيمَ ومواقفَ أيديولوجيّةٍ مُعيّنةٍ، وتَبريرِ ممارساتِ السلطةِ، وإقناعِ الجماهيرِ بصحّةِ سِياساتِها**" [23]

و في روايات (العتوم) تتحول الجدران من أداة حجزٍ إلى وسيطٍ اتصاليٍ يحمل جدار الزنزانة رمزيةً عميقةً تتجاوز كونه فاصلاً مادياً، إذ يتحول إلى الشاهد الوحيد على معاناة السجين والمكان الذي تُحفر عليه الذاكرة والوجع.

تتحول لغة السجين داخل فضاء السجان من لغةٍ خاضعةٍ إلى لغة "معرفة الهامش"، إذ تصبح النقوش على الجدران وثيقةً عضويةً تثبت البقاء وتكسر صمت الزنزانة وتتحول الزنزانة كموقع للمعرفة، لتتزاح لغة السجين من مجرد تعبيرٍ جماليٍ، إلى أداةٍ سياسيةٍ تكسر "نسق الصمت" الذي تحاول السلطة فرضه كشرطٍ للأمان.

و تبرز رمزية الجدران في الرواية من خلال النقاط التالية:

* الجدار كشاهد: الجدران هي المستودع الذي يضم حكايات عشرات الألوف من الشهداء والمفقودين الذين قضوا خلفها.

* الجدار كحدٍ فاصلٍ بين الحياة والموت: يصف الكاتب السجن وما يضمه من جدران بأنَّه "مقبرة" للأحياء، إذ تصبح الجدران هي حدود العالم المتبقية للسجين.

* الجدار والذاكرة: يمثل الانتقال من زنزانةٍ إلى أخرى (مثل الزنزانة رقم 11) تحولاً في فصول العذاب، إذ تصبح الجدران المحيطة بالسجين هي رفيقه في مواجهة "كتلة الجراح وكيس الأوجاع".

فتعكس هذه الأنساقُ أحوال السجناء المهمشين الذين غادروا حدود اللغة التقليدية ليخلقوا لغةً عضويةً مرتبطةً بالمكان العقابي من خلال الرسائل المضمرة.

[23] - حفناوي بعلي، مدخل إلى النّقد الثّقافي وقضاياه، ص 95

"إنّ النّصوصَ الأدبيّةَ ليستْ بَريئةً من الأنساقِ المُضمرةِ، بَل إنّها تَتضمّنُ الكَثيرَ مِنها، والّتي تَتخفّى خَلفَ أقنعةٍ جَماليّةٍ وأدبيّةٍ لِتمريرِ أفكارٍ ومواقفَ اجتماعيّةٍ وسياسيّةٍ" [24]

و تبرز الكتابة على الجدران كفعل مقاومةٍ ليست مجرد عبثٍ، بل هي محاولةٌ من السجين لإثبات أنَّه "كانَ موجوداً" في وجه منظومة تحاول محو هويته وتحويله إلى مجرد رقم فتغدو جدران السجن بوصفها لوحة يسجل عليها المساجين وجودهم وذكرياتهم هرباً من النسيان..

فالكتابة على الجدران هي اللغة البديلة التي يخلقها السجين لمواجهة "لغة السجان" الرسمية، وهي محاولة لإثبات الوجود في مكان مُصمم لمحو الأثر.

"نظرتُ إلى الجدران من حولي، كانت مليئة بالنقوش والأسماء والتواريخ، كل سجين مرّ من هنا ترك خلفه أثراً، بعضهم كتب آية قرآنية، وبعضهم كتب اسم حبيبته، وآخرون اكتفوا بذكر عدد الأيام التي قضوها في هذا القبر المظلم... كانت الجدران تنطق بآلامهم وتستصرخ الضمير الإنساني من خلف القضبان".[25]

يصف (العتوم) النقوش على جدران الزنزانة بأنَّها رسالةٌ عن أحوال السجناء المهمشين، إذ يقول السارد: **"إذا لم تقترب منه، وتُمعن النظر، فلن تكتشف أنَّ من سبقوني إلى هذه الزنزانة قد مروا من هنا، وكتبوا بعض خواطرهم على الجدار".** [26]

يصف (العتوم) النقوش على جدران الزنزانة بأنَّها رسالةٌ عن أحوال السجناء المهمشين، تعكس هذه اللغة المحفورة بالأظافر صوتاً للهامش يثبت الحضور بالغياب ويقاوم طمس الهوية، وتحمل دلالاتٍ عميقةٍ: هذه النقوش هي "صوت الهامش" الذي لا يملك حق التمثيل في القنوات الرسمية، فيلجأ لوسائط بديلة (الحفر بالأظافر)، فتتحول الكتابة على الجدران إلى "أثرٍ وجوديٍ" يثبت حضور

[24] - محسن جاسم الموسوي، النّقد الثّقافي: من التاريخانيّة إلى ما بعد الاستعمار، ص 118
[25] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص23
[26] - أيمن (العتوم)، يا صاحبي السجن، ص 38

السجين حتى بعد رحيله أو غيابه، وهي مقاومة رمزية لمحاولات "طمس الذات" وتمييع الهوية التي تمارسها السلطة.

فيبرز نسق "المقاومة بالتدوين" مقابل "محو المؤسسة" يضمر النص صراعاً بين نسقين متضادين: نسق السلطة الذي يسعى لتحويل الإنسان إلى "رقم" أو "كائن بيولوجي" مجرد من التاريخ، ونسق الهامش الذي يعيد بناء الهوية عبر "الأثر".

فالكتابة هنا ليست فعلاً تزيينياً، بل هي استراتيجية بقاء. الجدار في منظور السجان هو "أداة حجز"، لكنه في النسق المضمر للسجين يتحول إلى "فضاء عمومي بديل" يكسر العزلة ويحقق التواصل العابر للزمن مع السجناء اللاحقين.

وتتجلى عبقرية النص في إبراز وسيلة التدوين (الأظافر). هذا الفعل يضمر دلالةً عميقةً لتغدو لغة الجسد (الحفر بالأظافر) كنسق احتجاجي، فعندما تُصادر السلطة "القلم" (أداة الكتابة الرسمية)، يصبح الجسد نفسه هو الأداة.

الحفر بالأظافر هو إعلان عن التحام الذات بالنص، فالسجين لا يكتب بمداد خارجي، بل يقتطع من جسده ليترك أثراً، هذا يعكس نسقاً من "المقاومة العضوية" التي تجعل من الألم وسيلةً لإنتاج المعرفة والشهادة على المرحلة.

يشير النص إلى الأسماء والتواريخ والآيات. خلف هذا التعداد يكمن نسق مضمر يستهدف استعادة المركزية:

الأسماء: هي تمرد على "الرقمية" التي تفرضها إدارة السجون.

التواريخ: هي محاولة لاسترداد الزمن الخطي من "الزمن الدائري" أو الرتيب للزنزانة.

هذا النشاط الذهني يضمر نسقاً دفاعياً يحمي السجين من "التشيؤ" (أي التحول إلى شيء)، ويحول الزنزانة من "قبر مظلم" (مكان ميت) إلى "لوحة تذكارية" (مكان مأهول بالمعنى) كل ذلك ضمن نسق "تأثيث العدم" واستعادة الزمان والمكان.

"إنّ كشْفَ الأنساقِ المُضمرةِ يَتطلّبُ قراءةً نَقديّةً خاصّةً، تَعتمدُ عَلى أدواتٍ ومناهجَ بحثيّةٍ مُتعدّدةٍ، وتَسعى إلى تفكيكِ النّصوصِ وتَحليلِها مِن منظورٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ" [27]

رابعاً: استجابة الذات (السجين)

يلجأ السجين أحياناً لمحاورة ذاته كـ "آخر" ليتكيف مع الظروف العقابية القاسية ولتجنب الانهيار أمام ضغط السجان في محاولة منه لترويض النفس ترويض النفس بوصفها ألية دفاع ضد القهر، تجسد الرواية كيف تمارس السلطة رقابتها على الجسد والنفس، و يُعَبِّرُ البطل عن استراتيجية التكيف والمقاومة الداخلية، عندما تشتد سطوة الجلاد، تلجأ الذات إلى حوار داخلي للنجاة، يبرز الحوار النفسي بوصفها وسيلةوحيدة للسجين لمواجهة الانهيار ومحاولة تقبل الواقع القاسي، وفي اقتباس آخر حول محاولة التمسك بالذات والهدوء الداخلي:

أما الذي عند الرأس فأمسك (بكيبل) مجدول وراح يهوي به على رأسي المتورّمة من الحفلة الأولى، حتى إذا تعب تحوّل إلى الأمام، وبدأ يضرب على الإليتين، ويتقصد الخصيتين، فيتفاقم مستوى الألم إلى حدّ لا يوصف... أما صرخاتي فلم تكن تعبيراً عن هذا الألم بقَدْر ما كانت التقاطاً للنّفَس الذي بدأ يتلاشى من صدري، كنتُ أصرخ لأسحب الهواء إلى الدّاخل حتّى أحافظ على نَفَسي من أن يخرج".[28]

يُعد النص السابقُ شهادةً حيةً على تجربة "أدب السجون"، إذ يتجاوز الوصف المادي للتعذيب ليصل إلى عمق الفلسفة الوجودية للسجين. عند تحليل النسق المضمر، نجد عدة تفرعاتٍ عميقةٍ:

1. نسق "الصراخ كفعل مقاومة" (البيولوجيا ضد العدم) المعنى الظاهر للصراخ هو التعبير عن الألم، لكن النسق المضمر هنا يقلب الآية، الصراخ ليس استسلاماً بل هو آلية للبقاء البيولوجي.

[27] - فنسنت ليتش، النّقد الثّقافي: النظرية الأدبيّة وما بعد البنيويّة، ص 103
[28] - أيمن (العتوم)، يسمعون حسيسها، ص20

السجين يُدرك أنَّ الجلاد يريد تحويل جسده إلى حطام، فيستخدم الصراخ (الذي يُفترض أنَّه علامة انكسار) ليكون وسيلةً لـ"استنشاق الحياة". الصراخ هنا هو "شهيق" مستمر يمنع تلاشي النفس، مما يحول الفعل من حالة ضعف إلى أداةٍ تكنولوجيةٍ جسديةٍ للحفاظ على الذات.

2. نسق "تفتيت الجسد مقابل وحدة الذات" يعمل الجلاد وفق نسق "التشييء"، أي التعامل مع الجسد ككتلة من اللحم (رأس، إليتين، خصيتين) يمكن ضربها وتفكيكها، و في المقابل، يبرز نسقٌ مضمرٌ لدى السجين وهو الاستعلاء على الألم. من خلال "الحوار النفسي"، يعيد السجين لملمة أجزاء جسده المبعثرة تحت الضرب. الألم "لا يوصف"، ولكن الوعي بهذا الألم ومراقبته هو ما يحمي "الأنا" من الانهيار الكامل.

3. نسق "المقدس والمدنس" في صراع الإرادات، يظهر الجلاد في النص بوصفها قوة غاشمةٍ تتحرك بآليةٍ صماء (الضرب حتى التعب ثم التحول لمكان آخر)، بينما يظهر السجين ككائنٍ يبحث عن "الهدوء الداخلي".

الثقافةُ المضمرةُ هنا تشير إلى أنَّ القوة البدنية (الكيبل المجدول) هي في الحقيقة فعل عاجز، لأنَّها لا تستطيع النفاذ إلى الحصن الأخير وهو "النفس". السجين يحول المعركة من ساحة الجسد (الخاسرة سلفاً) إلى ساحة الروح والوعي (التي يمتلك فيها السيطرة).

4. نسق "تطبيع الألم" بوصفها استراتيجية دفاعية يتجلى في عبارة "الحفلة الأولى" نسقٌ مضمرٌ مرعبٌ وهو الاعتياد، و تسمية التعذيب "حفلة" ليست مجرد سخرية سوداء، بل هي وسيلةٌ لـ "تأطير" الألم داخل قالب مألوف لتقليل صدمته النفسية. السجين يروض الوحش عبر إعطائه مسميات تجعله جزءاً من "يوميات" الواقع القاسي، لكي لا يفاجئه الانهيار.

هنا يتم استبدال وظيفة الحواس التقليدية بوظائف دفاعية جديدة. الصراخ يصبح هواءً، والألم يصبح موضوعاً للدراسة النفسية، والجسد يصبح خندقاً للمقاومة وليس مجرد وعاء للتلقي. النص يكرس مفهوم أنَّ الحرية الحقيقية تبدأ من النقطة التي يعجز فيها الجلاد عن اختراق "الحوار الداخلي" للضحية.

"**النسقُ المضمرُ هو ذلك البعدُ المسكوتُ عنه في النّصّ الأدبي، والّذي لا يَتجلّى في اللغةِ المباشرةِ، وإنّما في الثّنايا، والفراغاتِ، والبيّناتِ، والّذي يَتطلّبُ قِراءةً نَقديّةً خاصّةً لاستكشافِهِ**"[29]

وفي اقتباسٍ آخرَ عن مناجاة الذات لله للصبر:

"**يا رب الوحوش والكائنات الغريبة والمخلوقات التي لا تشبه البشر في شيء: ساعدني لكي أقول ما ينبغي قوله!! ساعدني لكي أنجح في قتل الخوف الذي شرّش في أعماقي على مدى سبعة عشر عاماً!!**"..[30] هذا النوع من الحوار الداخلي والمناجاة كان الوسيلة التي اتبعها البطل لتهدئة نفسه من وطأة السياط التي ظلت تصطفق في رأسه لسنوات

يمثل هذا "الترويض" ما تسميه الدراسة "الهوية التفاوضية"، إذ يعيد السجين بناء واقعه الداخلي ليحمي "المركز الروحي" للذات من الانهيار أمام عنف الجلاد المادي.

فتبرز هنا الهوية التفاوضية و استحداث "علاقةٍ تفاوضيةٍ" بين الأنا وذاتها لتجنب الانهيار أمام ضغوط السجان، إذ يكتسب السجين معناه من خلال حوارية داخلية تمنع الانهيار. فيلجأ البطل للعقلانية لترويض اندفاعات النفس، مما يحول الصراع الداخلي إلى "مساومةٍ" تهدف للاستمرار والبقاء تحت وطأة الظلم.

ويظهر أنَّ السلطة لا تهدف للعقاب البدني فقط، بل: إنتاج وعيٍ جديدٍ فالاستجواب عند (العتوم) هو "جهاز أيديولوجي" يسعى لإنتاج وعيٍ خاضعٍ للذات من خلال طقوس سحب الاعتراف ومن خلال ممارسة طقوس الخضوع والاستسلام في جلسات الاستجواب اللذين يُطرحان كشرطٍ أساسيٍ "للبقاء"، وهو ما يعيد تشكيل هوية السجين وفق ما تقتضيه منظومة السيطرة.

[29] - صلاح قنصوة، فلسفة القيم، ص 145
[30] - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص10

فالسجن يؤدي إلى فقدان للهوية يصف البطل حالة التيه النفسي بقوله: "**حتى لم أعد أنا... أنا!!!**"[31]، وهو تعبير عن بداية التفكك النفسي الذي قد يؤدي للجنون

وهنا يبرز الجنون كفعلٍ مقاومٍ ففي حالات التعذيب الشديد، قد تفرز الذات آليات دفاعٍ "مجتمعيةٍ أو هلوسيةٍ" تتجاوز الهزيمة لتعيد بناء المحيط داخلياً، مما يمثل تفكيكاً للهوية الزائفة التي يحاول السجن فرضها مستخدما الجنون بوصفها ألية دفاع.

يتحول الجُنون إلى رفضٍ وعصيان "**غرفة ٢٧ ظلت محفورة في ذاكرتي حتى بعد أن مسحوها. فيها تأرجحت مثل خردلة في العواصف مئة مرة في لحظات متناقضات. ومنها أطللت على حياة ليست موجودة ولا في أخصب الخيالات هيمانا وأكثرها تجنيحا وأبعدها شأواً**" [32]

وإذا تمّ ربط الجنون بالنقد الثقافي، وتحليله وفق آليّاته باعتباره خلفية إجرائية؛ نجده يستعين بأدوات تحليل الخطاب والسيميائية [33]؛ لتفكيك التصور النمطي للجنون، وتوظيفه وجها ثقافيّا، ونظاما لغويّا، ورمزيّا، نستنكر بواسطته النّظم السّائدة، ويجعل منه نقطة انطلاق تفهم من خللها كيفيّة عمل السلطة والمعرفة، ودورها في تشكيل المفاهيم الثقافيّة ، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، والدّينيّة، التي تحكم علقة الأنا بالآخر فيتجاوز الجنون هنا معناه ولا يمثل انهياراً للأنا، بل هو "تفكيكٌ للهوية الزائفة" التي يحاول السجن فرضها، والعودة إلى "خزان المعنى المكبوت" في اللاشعور.

تُعدُ روايات أيمن (العتوم)، خاصةً تلك التي تنتمي لـ "أدب السجون"، مخزناً ثرياً للاقتباسات التي تجسد الصراع بين الذات والسلطة، وتعكس لغة السجان وآليات القمع الرمزي والمادي.

والقارئ لأيمن (العتوم) يرى أنَّ القيم التي بُنيت عليها رواياته هي قيمٌ إنسانيةٌ عليا، مثل الحرية... ومن ثمَّ هي تتحدث عن الذوات المحبوسة، أو المسجونة... المعذبة، والمنفية، والمطاردة المخفية و المضمرة خلف الكثير من الانساق.

31 - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص 10
32 - أيمن (العتوم) ، يسمعون حسيسها، ص 101 .
33 - محمد إبراهيم عبد العال، النقد الثقافي نحو منهجية التحليل الثقافي للأدب، د ط، مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، القاهرة، مصر ، د ت، ص 138 ، 143

"إنّ مهمّةَ النّقدِ الثّقافي هِي تَعرِيةُ هَذه الأنساقِ المُضمرةِ، وكَشفُ آليّاتِ عَملِها، وتَبيان كَيفَ أنّها تَتَخفّى خَلفَ أقنعةٍ جَماليّةٍ وأدبيّةٍ لِتمريرِ أفكارٍ ومواقفَ أيديولوجيّةٍ" [34]

إنَّ مجمل هذه الاقتباسات تعمل كـ "وثيقةٍ ثقافيةٍ" تكشف صراع الهامش (السجين) مع المركز (السلطة)، وتوضح كيف تتحول اللغة من أداة تواصل إلى أداة تحررٍ ومقاومةٍ وجوديةٍ.

سلطة المركز: السجان والمحقق الذين يملكون حق "منح الحياة أو سلبها".

لغة الهامش: النقوش على الجدران، الرسائل المهربة، والشعر المكتوب في الزنازين.

التشييء: تحويل السجين إلى رقم وإخضاعه لرقابة بصرية دائمة.

المقاومة الرمزية: الإصرار على الكتابة ورفض الصمت رغم التهديد بالعقوبة.

يُصوّر الكاتب كيف يمكن لظلم السجن وأهواله أن تذهب بعقول المساجين، محولةً حياتهم إلى جحيم نفسي يفوق ألم الجسد. يصف حالة الرعب والانهيار النفسي التي قد تؤدي إلى فقدان الإدراك والجنون تحت وطأة التعذيب:

يشير الكاتب إلى أنَّ الجحيم النفسي يتشكل في الحياة الدنيا من خلال تجربة السجن، إذ يصبح السجين مغيباً عن الواقع ومنفصلاً عنه في ثنايا الرواية (وبناءً على الأحداث العامة في مهاجع تدمر المذكورة مثل المهجع ٢٧ و٣٤)، يُصوَّر الجنون أحياناً كأنه الوسيلة الأخيرة لهروب العقل من واقع لا يمكن احتماله، إذ يفقد السجين القدرة على التمييز بين الوقت والزمن أو بين الجلاد والضحية، **"إنّ هَذهِ الأنساق المُضمرة تَتجذّرُ في اللاوعي الجمعي، وتَنتقلُ عَبْر الأجيالِ دُونَ أن تَخضعَ للنّقدِ أو المساءلةِ، وتَتحكّمُ في تصرّفاتِ الأفرادِ ومَواقِفِهِم من القضايا المُختلِفةِ"** [35]

يمكن القول إنَّ رواية "يسمعون حسيسها" لم تكن مجرد توثيقٍ تاريخيٍ أو سيرةٍ ذاتيةٍ مغلفةٍ بالخيال، بل كانت بنيةً ثقافيةً معقدةً تتصارع فيها الأنساق وتتقاطع. لقد كشفت الدراسة أنَّ "النسق المضمر" في رواية أيمن (العتوم) كان المحرك الخفي لجماليات السرد، إذ نجح الكاتب في جعل اللغة

34 ـ فنسنت ليتش، النّقد الثّقافي: النظرية الأدبيّة وما بعد البنيويّة، ص 98
35 ـ عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، ص 78

وسيلة للمقاومة تارة، ومرآة تعكس قبح الأنساق الفحولية والسلطوية تارة أخرى، "**إنّ النسقَ المضمرَ يَعمَلُ عَمَلَهُ في ذهنِ المتلقّي عَبْر اللاوعي، ممّا يَعني أنّ المتلقّي يَستهلكُ القِيَمَ والمفاهيمَ النّسقيّةَ دُونَ أنْ يُدرِكَ ذَلِكَ، ودُونَ أنْ يَملِكَ القُدرةَ على نَقدِها أو رَفْضِها**" [36]

لقد استطاع البحث أن يزيح الستار عن تلك التناقضات الكامنة بين "النسق الظاهر" (الذي ينشد الحرية والكرامة) وبين "النسق المضمر" (الذي قد يكرس أحياناً بوعي أو دون وعي قيم الخضوع أو القداسة المطلقة). وبذلك، فإن الرواية لم تعد مجرد "أدب سجون" بالمعنى الضيق، بل استحالت مختبراً ثقافياً يعيد قراءة علاقة الفرد بالمقدس، والسلطة، والجسد، والآخر.

إنَّ هذا العبور من ضفة النقد الثقافي إلى عمق النص الروائي، أكد لنا أنَّ النص العظيم هو الذي يمنحنا أكثر مما يقول، ويخفي في طياته من الأسئلة ما يفوق صراحة الأجوبة، وهو ما تجلى بوضوح في ثنايا "حسيس" (العتوم).

8. نتائج البحث

* الرواية تعيد إنتاج الصراع التاريخي بين الحق والباطل في قوالب لغويةٍ حديثةٍ.

* اللغة الشاعرية عند (العتوم) كانت "قناعاً" لتمرير قسوة الأنساق المضمرة وتخفيف وطأتها على القارئ.

* السجن في الرواية لم يكن مكاناً جغرافياً بقدر ما كان "مختبراً ثقافياً" تظهر فيه أصالة الأنساق أو زيفها.

* يُعدُ نسق السلطة والجلاد (تأليه القوة واستلاب الإنسانية) في رواية "يسمعون حسيسها" النسق المهيمن والمحرك للفعل الدرامي.

* نسق "تأليه الجلاد" وصناعة العدم فالنسق المضمر في لغة السجان داخل سجن تدمر لا يقف عند حدود تنفيذ الأوامر، بل يتجاوزه إلى تقمص دور "الإله الأرضي" الذي يملك حق الحياة والموت.

* النسق المضمر يُظهر الجلاد في الرواية ككائن "متعالٍ" لا يُسأل عما يفعل، بينما السجناء هم "العدم".

[36] - عبد الله الغذامي، النّقد الثّقافي قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة، ص 81

* تستخدم لغة الجسد كحقلٍ للأنساق الإكراهية في هذا النسق، لا يعود الجسد ملكاً لصاحبه (الطبيب إياد أسعد)، بل يتحول إلى "سبورة" يكتب عليها الجلاد ساديته.

فالتعذيب في الرواية ليس وسيلة لانتزاع اعتراف (هدف معلن)، بل هو وسيلة لـ "كسر النسق الإنساني" (هدف مضمر).

* نجد أنَّ (العتوم) يركز على تفاصيل "الحسيس" والألم الجسدي ليُظهر كيف يحاول النسق السلطوي تحويل الإنسان إلى "بهيمة" أو "جماد".

* إنَّ نسق "التشييء" (تحويل الإنسان إلى شيء) هو النسق الثقافي المضمر وراء كل سوط يُرفع.

* يتحول سجن تدمر في الرواية من مكانٍ جغرافيٍ إلى "أيقونة للرعب" نسق "المكان المغلق"

توحي النصوص بأنَّ السجن هو "مصغر" لنسق السلطة الكلي في الخارج؛ فما يحدث في تدمر هو تكثيف لما يحدث في المجتمع من تكميم للأفواه واستلاب للإرادة، لكنَّه في السجن يمارس صورته العارية دون تجميل.

* إنَّ نسق السلطة في "يسمعون حسيسها" يشتغل على محورين: الأول هو تحطيم كبرياء الذات المثقفة (الطبيب)، والثاني هو استبدال القيم الإنسانية بقيم "الغاب" إذ القوة هي الحق الوحيد.

9- الخاتمة

إنَّ رواية "يسمعون حسيسها" ليست مجرد وثيقةٍ تاريخيةٍ عن سجن تدمر، بل هي "بنيةٌ ثقافيةٌ" معقدة تختزن صراعات الإنسان العربي مع السلطة والمقدس والذات. لقد نجح أيمن (العتوم) في جعل "الحسيس" صوتاً لا ينقطع، محولاً تجربة الموت إلى نص للحياة، وهو ما حاول هذا البحث كشفه عبر تفكيك الأنساق المضمرة التي جعلت من الضحية صانعة للقيم، ومن الجلاد مجرد عارض عابر في تاريخ الروح البشرية.

إن رواية "يسمعون حسيسها" تظل نصاً مفتوحاً على قراءات ثقافية متعددة، وما هذه الدراسة إلا محاولة لرفع الحجاب عن بعض المسكوت عنه في ثنايا الوجع الإنساني الذي صوره (العتوم)، ليبقى السؤال قائماً: كيف يمكن للكلمة أن تهزم الجلاد حتى وهي في غيابات السجون؟

10- المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المقدسة

* القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر (الروايات والمعاجم)

* العتوم، أيمن. (2012). *يسمعون حسيسها* (ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

* ابن منظور، جمال الدين محمد. (د.ت.). *لسان العرب*. دار المعارف.

* مسعود، جبران. (1992). *الرائد (معجم لغوي عصري)*. دار العلم للملايين.

ثالثاً: المراجع العربية والمترجمة (الكتب)

* إيغلتون، تيري. (1995). *نظرية الأدب* (ترجمة ثائر ديب). منشورات وزارة الثقافة.

* باختين، ميخائيل. (1987). *الخطاب الروائي* (ترجمة محمد برادة). دار الفكر للدراسات والنشر.

* بعلي، حفناوي. (2007). *مدخل إلى النقد الثقافي وقضاياه*. الدار العربية للعلوم ناشرون؛ منشورات الاختلاف.

* خمري، حسين. (2011). *سرديات النقد في تحليل الخطاب النقدي المعاصر* (ط1). منشورات الاختلاف.

* طليمات، يوسف. (2004). *جماليات التحليل الثقافي: الشعر الجاهلي نموذجاً* (ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

* عبد العال، محمد إبراهيم. (د.ت.). *النقد الثقافي نحو منهجية التحليل الثقافي للأدب*. مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية.

* الغذامي، عبد الله. (2001). *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية* (ط2). المركز الثقافي العربي.

* فارس، ول. (2010). *أدب السجون في الرواية العربية المعاصرة*. منشورات اتحاد الكتاب العرب.

* فوكو، ميشيل. (1990). *المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن* (ترجمة علي مقلد). مركز الإنماء القومي.

* القاسمي، عبد العزيز. (2015). *جماليات السرد في روايات أيمن العتوم*. دار جرير للنشر والتوزيع.

* ليتش، فنسنت. (2002). *النقد الثقافي: النظرية الأدبية وما بعد البنيوية* (ترجمة هشام بن شاوي). دار قرطبة للنشر والتوزيع.

* المرازيق، أحمد جمال. (2009). *جماليات النقد الثقافي* (ط1). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

* مرتضى، فيصل. (2001). *بنية الخطاب الروائي: دراسة سيميائية*. دار الشؤون الثقافية.

* الموسوي، محسن جاسم. (2005). *النقد الثقافي: من التاريخانية إلى ما بعد الاستعمار*. دار الشؤون الثقافية العامة.

رابعاً: الدوريات (المجلات العلمية)

* الحمداني، ثائر. (2018). أدب السجون بين التوثيق والتخييل: رواية يسمعون حسيسها نموذجاً. *مجلة الدراسات اللغوية والأدبية*، 4(2).

* الرويلي، سعد. (2010). سيمياء الألم في الرواية العربية الحديثة. *مجلة علامات في النقد*، (70). النادي الأدبي الثقافي.